

وعند البائع اذا طلبوا شراء شيء منه ، وهم اذا رأوا شجرة الجوز أو اللوز لا يميزون بينها وبين شجرة الجوز أو الفلفل . وأما الجماعة فعندهم في بساين النبات جميع هذه الأنواع من الأشجار ، وما لا تناسبه درجة الحرارة في الهواء يحدثون له جواء تناسبه بالتسخين أو التبريد حتى يعيش في جو مثل جوه ، ولكل من يريد معرفة شيء أن يذهب ويعرفه بعينه ، ذلك وقد رسموا صور هذا كله فيما كتبوا من كتب اللغة ومعجمات العلوم . ويتيسر للحاذق أن يعرف هذه الأشياء بصورها المرسومة في تلك الكتب . أما اذا قال لك صاحب القاموس : الجوز شجر (م) أي معروف ، فماذا تستفيد من هذا وأنت في مصر ، وليس في قرب الأزهر شيء من شجر الجوز (م) بل ولا في الأزبكية نفسها ، فكيف يصير هذا عندك معروفاً ؟ وكيف يمكنك أن تحدث عن هذا الشجر اذا كنت كاتباً أو شاعراً أو طبيباً أو عالماً أو أديباً ؟

### ﴿ الصور والتماثيل وفوائدها وحكمها ﴾

لهؤلاء القوم حرص غريب على حفظ الصور المرسومة على الورق والنسيج ويوجد في دار الآثار عند الامم الكبرى مالا يوجد عند الامم الصغرى كالصقليين مثلاً ، محققون تاريخ رسمها واليد التي رسمتها ، ولهم تنافس في اقتناء ذلك غريب ، حتى إن القطعة الواحدة من رسم روفائيل مثلاً ربما تساوي مئتين من الآلاف في بعض المتاحف ، ولا يهتك معرفة القيمة بالتحقيق ، وإنما المهم هو التنافس في اقتناء الامم لهذه النقوش ، وعدّ ما أتقن منها من أفضل مترك المتقدم المتأخر ، وكذلك الحال في التماثيل ، وكلما قدم المتروك من ذلك كان أعلى قيمة ، وكان القوم عليه أشد حرصاً ، هل تدري لماذا ؟ اذا كنت تدري السبب في حفظ سلفك للشعر وضبطه في دواوينه ، والمبالغة في تحريره ، خصوصاً شعر الجاهلية . وما غني الأوائل رحمهم الله بجمعه وترتيبه أمكنك أن تعرف السبب في محافظة القوم على هذه المصنوعات من الرسوم والتماثيل ، فإن الرتم ضرب من الشعر الذي يرمى ولا يسمع ، والشعر

ضرب من الرسم الذي يسمع ولا يرى . ان هذه الرسوم والتماثيل قد حفظت من أحوال الاشخاص في الشؤون المختلفة ، ومن أحوال الجماعات في المواقع المتنوعة ، ماتستحق به ان تسمى ديوان الهيئات والاحوال البشرية . يصورون الانسان أو الحيوان في حال الفرح والرضا ، والطمانينة والتسليم . وهذه المعاني المدرجة في هذه الالفاظ متقاربة لايسهل عليك تمييز بعضها من بعض ، ولكنك تنظر في رسوم مختلفة فتجد الفرق ظاهراً ، باهراً ، يصورونه مثلاً في حالة الجزع والفرح ، والخوف والحشية . والجزع والفرح مختلفان في المعنى ، ولم أجمعها هنا طمعاً في جمع عينين في سطر واحد ، بل لأنهما مختلفان حقيقة ، ولكنك ربما تعصر ذهنك لتحديد الفرق بينهما وبين الخوف والحشية ، ولا يسهل عليك ان تعرف متى يكون الفرع ، ومتى يكون الجزع ، وما الهيئة التي يكون عليها الشخص في هذه الحال أو تلك . وأما اذا نظرت إلى الرسم وهو ذلك الشعر الساكت ، فانك تجد الحقيقة بارزة لك تتمتع بها نفسك ، كما يتلذذ بالنظر فيها حسك . اذا نزعت نفسك الى تحقيق الاستعارة المصروفة في قولك : رأيت أسداً — تريد رجلاً شجاعاً — فانظر الى صورة ابي الهول بجانب الهرم الكبير ، تجد الأسد رجلاً ، أو الرجل اسداً ، فحفظ هذه الآثار حفظاً للعلم في الحقيقة ، وشكر اصحاب الصنعة على الابداع فيها . ان كنت فهمت من هذا شيئاً فذلك بغيتي ، وأما اذا لم تفهم فليس عندي وقت لتفيمك بأطول من هذا ، وعليك بأحد اللغويين أو الرسامين ، أو الشعراء المقلقين ، ليوضح لك ماغض عليك اذا كان ذلك من ذرعه .

ربما تعرض لك مسألة عند قراءة هذا الكلام ، وهي ماحكم هذه الصور في الشريعة الاسلامية اذا كان القصد منها ماذكر من تصوير هيئات البشر في انفعالاتهم النفسية ، أو أوضاعهم الجمانية ، هل هذا حرام أو جائز ، او مكروه أو مندوب او واجب ؟ فأقول لك ان الراسم قد رسم ، والفائدة محققة لانزاع فيها ، ومعنى العبادة وتعظيم التمثال أو الصورة قد محي من الاذهان ، فاما أن تفهم الحكم من نفسك بعد ظهور الواقعة ، وإنما ان ترفع سؤالاً الى المفتي وهو

يجيبك مشافهة ، فإذا أوردت عليه حديث : « ان أشد الناس عذابا يوم القيامة المصورون » أو ماقى معناه مما ورد في الصحيح . فالذي يغلب على ظني انه سيقول لك ان الحديث جاء في أيام الوثنية وكانت الصور تتخذ في ذلك العهد لسببين : الاول الاله ، والثاني التبرك بمثال من ترسم صورته من الصالحين ، والاول مما يفضه الدين ، والثاني مما جاء الاسلام لمحوه ، والمصور في الخالين شاغل عن الله أو مهمل للاشراك به ، فاذا زال هذان العارضان وقصدت الفائدة كان تصوير الاشخاص بمنزلة تصوير النبات والشجر في المصنوعات . وقد صنع ذلك في حواشي المصاحف ، وأوائل السور ، ولم يمنعه أحد من العلماء ، مع أن الفائدة في نقش المصاحف موضع النزاع . وأما فائدة لصور فما لانزاع فيه على الوجه الذي ذكر<sup>(١)</sup> وأما إذا أردت أن ترتكب بعض السيئات في محل فيه صور طمعا في ان الملكين الكاتبتين أو كاتب السيئات على الأقل لا يدخل محلا فيه صور كما ورد فإياك ان تظن ان ذلك ينجيك من احصاء ما تفعل ، فان الله رقيب عليك . وناظر اليك . حتى في البيت الذي فيه صور . ولا أظن ان الملك يتأخر عن مرافقتك اذا تعمدت دخول البيت لان فيه صوراً . ولا يمكنك أن تجيب المقتي بأن الصورة على كل حال مظنة العبادة فاني أظن انه يقول لك ان اسانك أيضاً مظنة الكذب فهل يجب ربطه مع انه يجوز أن يصدق كما يجوز أن يكذب

(١) ان الذين رسموا الصالحين والانباء انما أرادوا التبرك بصورهم وتنظيمها إكراما لهم وهذا التعظيم يسمى في كل اللغات عبادة وجميع الصور والتماثيل التي كانت عند العرب كانت معظمة للدين ولذلك سمي في القرآن تعظيم اعبادة وكذلك النصراني كانوا يصرحون بأن تعظيم الأيتونات ونحوها من الصور عبادة فلما عارض المصلحون في ذلك صار بعض المصرين عليه يسمى تعظيمها إكراما وأصر بعضهم على تسميته عبادة . هذا وان النهي عن التصوير في الاسلام لم يزد على النهي عن تعظيم القبور وتشريفها وبناء المساجد عليها وإيقاد السرج عليها والاحاديث الصحيحة في حظر هذا كله ولمن فاعله مشهورة وقد فعله المسلمون مع بناء عتله وهم يتكلمون التهم بروفايدهم انتفاء علة النهي عنه أفنتؤمن بظاهرة بعض الدين ونكفر بحقيقة بعضه ؟ ( وكتبه محمد رشيد رضا )

وبالجملة انه يغالب على ظني أن الشريعة الاسلامية بعد من ان تحرم وسيلة من أفضل وسائل العلم بعد تحقيق انه لا خطر فيها على الدين لامن جهة العقيدة ولا من وجهة العمل . على أن المسلمين لا يتساءلون الا فيما تظهر فائدته ليحرموا أنفسهم منها، وإلا فما يالم لا يتساءلون عن زيارة قبور الأولياء أو مسامح بعضهم بالأولياء، وهم ممن لا تعرف لهم سيرة . ولم يطلع لهم أحد على سريرة ، ولا يستفتون فيما يفعلون عندها من ضروب التوسل والضراعة ، وما يعرضون عليها من الأموال والمتاع . وهم يخشونها كخشية الله أو أشد . ويطلبون منها ما يخشون ان لا يجيبهم الله فيه، ويظنون انها اسرع الى اجابتهم من عنايته سبحانه وتعالى . لا شك انه لا يمكنهم الجمع بين هذه العقائد وعقيدة التوحيد . ولكن يمكنهم الجمع بين التوحيد ورسم صور الانسان والحيوان لتحقيق المعاني العلمية وتمثيل الصور الذهنية .

هل سمعت اننا حفظنا شيئاً حتى غير الصور والرسوم، مع شدة حاجتنا الى حفظ كثير مما كان عند أسلافنا؟ لو حفظنا الدراهم والدنانير التي كان يقدر بها نصاب الزكاة ، ولا يزال يقدر بها الى اليوم أفما كان سهل علينا تقدير النصاب بالجنيهات والفرنكات ونحو ذلك مادام المثال الاول موجوداً بين أيدينا؟ ولو حفظ الصاع والمد وغيرها من المكاييل أفما كان ذلك ما يسر لنا معرفة ما يصرف في زكاة الفطر وما يجب فيه الزكاة من غلات الزرع بعد تغيير المكاييل، وما كان علينا الا أن نقيس مكيالنا بتلك المكاييل المحفوظة فنصل الى حقيقة الأمر بدون خلاف . أظنك توافقني على انه لو حفظ درهم كل زمان ، وديناره ومده وصاعه لما وجد ذلك الخلاف الذي استمر بين الفقهاء، يتوارثونه سلفاً عن خلف، كل منهم يقدر المكيال والميزان بما لا يقدر به الآخر، حتى جاء في آخر الزمان احمد بيك الحسيني بخطي: بعضهم ووفق بين أقوال البعض الآخر، بدون أن يكون بين يديه صاع ولا مد من تلك الأصص والامداد، وما أصعب التخطيطة والتوفيق ، اذا لم يكن العيان هو الميزان بين فريق وفريق ، لو نظرت إلى ما كان يجب الدين علينا أن نحافظ عليه لوجدته كثيراً

لا يحمي عده، ولم نحفظ منه شيئاً، فلنتركه كما تركه من كان قبلنا، ولكن ما قول في الكتب وودائع العلم، هل حفظناها كما كان ينبغي أن نحفظها، أو أضعناها كما لا ينبغي أن نضيعها؟ ضاعت كتب العلم، وفارقت ديارنا نفائسه، فإذا أردت أن تبحث عن كتاب نادر، أو مؤلف فاخر، أو مصنف جليل، أو أثر مفيد، فإذهب إلى خزائن بلاد أوربا تجد ذلك فيها. وأما بلادنا فقلما تجد فيها إلا ما ترك الأوربيون ولم يحفلوا به من نفائس الكتب التاريخية والأدبية والعلمية، وقد تجد بعض النسخة من الكتاب في دار الكتب المصرية مثلاً، وبعضها الآخر في دار الكتب بمدينة كبريدج من البلاد الانكليزية. ولو أردت أن أسرد لك ما حفظوا وضيعنا من دقاتر العلم لكنت لك في ذلك كتاباً يضيع كما ضاع غيره، وتجده بعد مدة في يد أوربي في فرنسا أو غيرها من بلاد أوربا نحن لانفي بحفظ شيء نستبقي نفعه لمن يأتي بعدنا، ولو خطر ببال أحدنا أن يترك لمن بعده شيئاً جاء ذلك الذي بعده أشد الناس كفرًا بتلك النعمة، وأخذ في إضاعة ما غني السابق بحفظه له، فليست ملكة الحفظ ما يتوارث عندنا، وإنما الذي يتوارث هو ملكات الضغائن والاحقاد، تنتقل من الآباء إلى الأولاد، حتى تفسد العباد، وتخرب البلاد، ويلتقي بها أربابها على سفير جهنم يوم المعاد.

### ﴿ أمير وأميرة من الاسرة الخديوية ﴾

البحر هادي، والهواء عليل، وقد قرب الغروب واليوم آخر أيام السفر، وأنا محبوس في هذا المكان الضيق، لتحرير هذه الأحرف، إجابة لطلب بعض الناس، وبودي لو استنشق الهواء، لكن بقيت علي قصة أقصها ولو تركتها اليوم لم يجد إليها القلم في يوم

صعدت إلى المركب من مسينا وجلست أنتظر مسيره، وبيننا أنا كنتك وإذا بأمير من أعضاء العائلة الخديوية يصعد من السلم إلى السطح، قهضت للسلام عليه، وتساءلنا عن مراحل استقلالنا، وفهمت منه أن معة حرمة، وهي من أعضاء